الجامعة المستنصرية
كلية الاداب
قسم الفلسفة
المحاضرة (5)

المدرس المساعد : شهد رحيم محمد
shahedaljabiry512@uomustansiriyah.edu.iq

مدخل لفلسفة ماركس النقدية

لقد استمد التطور الثري لفكر ماركس على الصعيدين النظري والسياسي مبادئه الأولى من الحركات الثورية الفكرية الالمانية من كانط إلى هيغل. ولأن شـــاغله إنما هو (لبحث عن الفكرة في الواقع ذاته فإنه كان مطالباً بالاســتدارة عن الفلســفة المثالية التي ابتدأت بقراءة كانط وفختة) وبامتحان وعيه الفلســـفي القديم وتحديداً التخلص من التجريد الهيغلي. وهنا كان نقده لمبادئ فلسفة الحق الهيغلية، حيث يؤكد بأن كل نظرية هيغل السياسية قائمة على مبدأ التجريد، فلم يعد الإشكال الفلسفي يُعنى بالمؤسسة السياسية في ذاتها بقدر ما يعمل على منح الدســتور طابعاً تجريدياً تماشــياً مع مســار الفكرة الموضــوعية . إضافة إلى نقده لتعامل هيغل مع مسألة الحق ومع الوجود الفعلي للحق كوجود حكومي سياسي غيّب الحريات الفردية للمواطنين وجعل المساواة تصبح وهماً صعب التحقق.

غير أن هذه الاستدارة لم تمنعه أبداً من الاستفادة من مجموع الأنساق الفلسفية الكبرى التي اطلع عليها زمن دراســته والتي وظفها في كل كتاباته تقريباً التي لم تخل من المضــمون التنويري. فانشـــغال ماركس بمادية الذريين القدامى في أطروحته ١٨٤٢ أســـهم في تطوير اعتراضــه على علم طبيعة الوعي بالذات في تعارضــه مع العالم، بحيث يصــبح المضــمون التنويري لأطروحته مبرهناً على ما اســـتمده من مادية الذريين القدامى من انتصـــار للعقل ومن دفاع عن الحياة والحرية. فما استجلاه ماركس في تنوير القدامى في كل ما يتعلق بالذرة وما يعتبر من قبيل التعديلات الجوهرية لعلم الفيزياء ســيتحول إلى بحث في العالم الموضوعي الحسي. والعياني المتعلق بالفرد باعتباره كائناً حركياً ومهيأ للمشاركة مع الآخرين لأجل بناء معالم وجوده الاجتماعي. بقدر ما يرتبط التنوير بالانتصـــار للعقل يقطع مع مقوله الضرورة والقوى المتحكمة في الوجود وأنه في هذا المستوى بالذات يختلف جوهرياً مع كانط. فالحرية بالنســـبة إلى ماركس هي قمة التطور في الطبيعة، وبالتالي فهي دفاع عما يشرع لمبدأ الفكر الحر والفلسـفة وضـد كل اعتبار مثالي للعالم. وسـيعود ماركس مجدداً للبحث في البعد التنويري للمادية من القدامى إلى المحدثين في مؤلفه العائلة المقدســـة (١٨٤٥) ليؤكد بأن هذا البعد ليس في نهاية الأمر ســـوى تأســـيس لوجود يتجاوز مظاهر الاغتراب سواء من نظام الطبيعة أو من سيطرة اللاهوت وبالتالي ما التنوير سوى كل أفق

يؤسس لموقعة الإنسان المتحرر من قيود الدين في الطبيعة والمجتمع بحيث يكون الفرد من يصنع ظروفه ويحدد طبيعة وجوده في المجتمع كقوة مستقلة.
فلئن ربط كانط تحقق التنوير بضرورة الاستعمال الذاتي والمسؤول للعقل لبلوغ التحرر من الأوهام ومن المعارف الخاطئة. وتجلى التنوير بالنسبة إلى فيورباخ في التحرر من الدين وفي انفتاح الإنسان على الواقع وعلى الطبيعة ، فإن ماركس سيستند إلى أهم مبدأ في مادية فيورباخ ، أي اكتشاف الاغتراب الديني ليعثر على مفتاح كل التناقضات التي تعفن الفكر الإنساني) بل إنه سيذهب إلى أبعد من هذا المستوى كاشفاً عن الأسباب الرئيسية للبؤس الاجتماعي الذي يَسم الحياة الإنسانية. فلئن اعتبر فيورباخ الدين انعكاساً للعلاقات المشوهة بين الناس بوصفه إيماناً بالأشباح"، فإن ماركس قد بين علاقة الوعي الديني بالاضطهاد والاستغلال : إن التعاسة الدينية هي في شطر منها تعبير عن التعاسة الواقعية وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية. الدين زفرة المخلوق المضطهد، روح عالم لا قلب له، كما أنه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح، إنه أفيون الشعوب تتحدد من هذا المنظور طبيعة الإنسان ذاته في كليتها وشمولها، والتي تتطلب لا تحرراً دينياً فحسب، بل تحرراً من الشروط المادية. ومن هنا سيكون نقده في ما أبعد من نقد فيورباخ وكانط معاً.
ولتحقيق ذلك سيتجاوز ماركس الفهم المثالي» الذي حملته مادية فيورباخ التي خلت حسب رأيه، من أهم شروط ومقومات الفلسفة المادية العملية، أي إدراك العنصر الاجتماعي والسياسي بصفتها العنصر الحاسم. فبالرغم من تأثر ماركس بمادية فيورباخ الانتروبولوجية وتقديره لنضاله ضد الفلسفة النظرية، إلا أنه عاب عليه عدم تمكنه من بلوغ فهم مادي للحياة والوعي والأخلاق الاجتماعية، وهو ما قصده بقوله : «ما إن توضع حقيقة الواقعة السياسية - الاجتماعية العصرية موضع النقد، وعموماً ما إن يرتفع النقد إلى معضلات إنسانية حقة، حتى يجد نفسه خارج الوضع الالماني القائم، وإلا سيكون عليه البحث عن موضوعه تحت أو دون موضوعه ذاته وسيؤكد ماركس موقفه هذا لاحقاً في أطروحاته حول فيورباخ عندما يقول بأن كل ما فعله الفلاسفة هو تأويل العالم في حين كانوا مطالبين بتغييره، وبالتالي باستجلاء المعايير والشروط المنظمة لقوى الأفراد الاجتماعية الخاصة، مما يمكنهم من تجاوز مستوى التحرر من الدين كظاهرة من ظواهر الاغتراب الإنساني إلى المطالبة بتحرر إنساني مكتمل. ولكن قبل ذلك اعتبر ماركس مع فيورباخ أن «نقد» الاغتراب الديني إنما هو شرط كل نقد على الأقل بالنسبة إلى ألمانيا» كما جاء في نص ١٨٤٣(خطوط أولية لنقد الاقتصاد السياسي) الشهير ، ولذلك افترضت مسألة التنوير بالنسبة إلى ماركس، في كل هذه المرحلة . ١٨٤٢ - ١٨٤٤ ، الفكر الحر بما هو معيار تحقق الحرية الواقعية المرادفة للقدرة والاستقلالية، وأنه لا يمكن الحديث عن حرية التفكير في سجل الخضوع للدين ولتعاليم اللاهوت.
الايديولوجية الالمانية:

في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الفلسفة الألمانية، وخاصة المثالية الهيغلية، تتمتع بنفوذ كبير على المفكرين الأوروبيين. ماركس وإنجلز، وكثيرون غيرهم في ذلك الوقت تأثروا بهيغل في بداية حياتهم الفكرية، لكنهم سرعان ما انقلبوا على رؤيته المثالية. وجاء كتاب "الأيديولوجية الألمانية" كرد مباشر على هذا التقليد الفكري، وخاصة على ما يسمى بـــ "الشباب الهيغليين" مثل برونو باور وماكس شتيرنر، الذين حاولوا تطوير أفكار هيغل المثالية بطرق جديدة.

مفهوم الأيديولوجية

في هذا الكتاب، طور ماركس وإنجلز مفهومهما عن "الأيديولوجية" كأداة فكرية تُســتخدم لتبرير الأوضــاع القائمة والحفاظ على الهيمنة الطبقية. انتقدا الطريقة التي اســتخدم بها المثاليون الألمان الأيديولوجية لتفسير التاريخ والواقع بناءً على الأفكار المجردة، متجاهلين البنية المادية والاقتصــادية التي تؤثر على تطور المجتمعات. وفقًا لماركس وإنجلز، فإن الأيديولوجية تعكس مصالح الطبقات المسيطرة، وتعمل كوسيلة لإخفاء التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التي تنشأ من الاستغلال. ويؤكد ماركس وانجلز أن فهم التاريخ البشري يجب أن يبدأ من حقيقة أن البشر كائنات مادية، مرتبطة بالطبيعة من خلال احتياجاتهم الجسدية. هذه العلاقة بينهم وبين الطبيعة تتغير مع مرور الزمن نتيجة لنشاطاتهم، وهذا ما يجب أن يأخذه أي تحليل تاريخي بعين الاعتبار. أذ يرى بإمكانية " تمييز البشر من الحيوانات بالوعي والدين، وكل ما يحلو لنا. وإنهم ليبدأون هم أنفسهم بتمييز أنفسهم من الحيوانات حالما يباشرون في إنتاج وسائل وجودهم، وهذه خطوة تشترطها بنيتهم الجسدية. فعندما ينتج البشر وسائل وجودهم، فإنهم ينتجون بصورة غير مباشرة حياتهم المادية بالذات ".

نقد ماركس لفيورباخ

" أن المسألة في الحقيقة هي بالنسبة إلى المادي العملي، أي بالنسبة إلى الشيوعي، هي مسألة تثوير العالم القائم، والنضال بشكل عملي ضد الأوضاع القائمة والعمل على تغييرها وإذا كنا نجد أحياناً عند فويرباخ وجهات نظر من هذا النوع، فإنها لا تذهب قط أبعد من كونها هواجساً منعزلة، وتأثيرها زهيد في مجمل تصوره العام، بحيث لا يمكن أن يرى المرء فيها سوى بذرة قادرة على التطور. إن تصور» العالم الحسي لدى فويرباخ يقتصر، من جهة، على مجرد تأمل هذا العالم، ومن جهة أخرى على العاطفة المجردة. إنه يقول "الإنسان" بدلاً من أن يقول "البشر التاريخيين الفعليين". و"الإنسان" هو في واقع الأمر "الألماني". وفي الحالة الأولى في تأمل العالم الحسي، يصطدم بالضرورة بأشياء هي في تناقض مع وعيه وعاطفته، تعكر تناسق جميع أجزاء العالم الحسي الذي افترضه بصورة مسبقة، وعلى الأخص تناسق الإنسان والطبيعة. وكيما يطرح هذه الأشياء، فإنه ملزم باللجوء إلى أسلوب مزدوج في النظر، فهو يتأرجح بين أسلوب في النظر عامي لا يدرك إلا ما هو مرئي بالعين المجردة وأسلوب في النظر أكثر رفعة، أسلوب فلسفي، يدرك «الماهية

الحقيقية للأشـــياء. إنه لا يرى أن العالم الحسيـــ الذي يحيط به، ليس موضـــوعاً معطى بصورة مباشرة منذ الأزل ومشابه لنفسه من دون انقطاع، بل إنه نتاج الصناعة ونتاج حالة المجتمع، وهذا يعني أنه نتاج تاريخي، نتيجة لنشـــاط وفعالية مجموعة". ماركس وإنجلز يشـــددان على أن المســـألة الحقيقية بالنســـبة إلى المادي العملي (أي الشـــيوعي) هي تغيير العالم القائم بالفعل، وليس مجرد تأمله أو فهمه نظريًا. أذ تســـعى الشـــيوعية إلى النضـــال العملي ضـــد الأوضـــاع القائمة والعمل على تغييرها جذريًا. بالرغم من أن فويرباخ قد يكون لديه أفكار مشـــابهة حول تغيير العالم، فإن ماركس وإنجلز يعتقدان أن هذه الأفكار ليســـت متطورة بشـــكل كافٍ وتبقى مجرد هواجس منعزلة لا تؤثر بشـــكل كبير في فلســـفته العامة. بعبارة أخرى، فويرباخ لا يصل إلى التعمق في مسألة التغيير العملي كما يريد ماركس. أذ يركز فويرباخ في فلســـفته على تأمل العالم الحسيـــ والشـــعور تجاهه، لكنه يفشـــل في رؤية التناقضـــات الموجودة في هذا العالم. هذا التأمل المثالي يصـــطدم بالواقع المعقد للعالم حيث تتناقض الأشـــياء مع وعي الإنســـان وتوقعاته. بالنســـبة إلى ماركس، هذا الأســـلوب التأملي والعاطفي لا يكفي لفهم العالم الحسيـــ حيث يرى أن فويرباخ يفشـــل في فهم أن العالم الحسيـــ الذي نراه ليس ثابتًا أو معطى بشـــكل دائم، بل هو نتاج للتاريـخ البشـــري. العالم الذي يحيط بنا هو نتيجة لتفاعل البشرـ مع الطبيعة من خلال الصـــناعة والتنظيم الاجتماعي، وبالتالي فإن العالم الحسيـ ليس مجرد واقع ثابت، بل هو نتاج نشـــاط بشرـي وتاريخي مستمر.